البلاغة و الأدب

من صور اللغة إلى صور الخطاب

د. محمد مشبال

البـلاغة والأدب

من صور اللغة إلى صور الخطاب


مَكْتَبَةُ
لِسَانُ العَرَب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

البلاغة والأدب

صور اللغة إلى صور الخطاب

د. محمد مشبال

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مشبال، محمد.

البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب/ محمد مشبال.

الإسكندرية؛ دار العين للنشر، ٢٠١٠

ص؛ سم.

تدمك؛ ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٠٤٤ ٠

١ – البلاغة العربية

أ– العنوان

٨١٩

رقم الإيداع / ٤٩٨٧ / ٢٠١٠

البلاغة والأدب

من صور اللغة إلى صور الخطاب

د. محمد مشبال

الطبعة الأولى / ١٤٣١هـ. ٢٠١٠م

دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥
WWW.elainpublishing.com

الغلاف بسمة صلاح
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٤٩٨٧ / ٢٠١٠
I S B N 978 9 190 011 0

المحتويات

مقدمة

ما البلاغة؟

نعرف أن هناك أكثر من تحديد للبلاغة[1]، لكن ما يميز المقاربة البلاغية من غيرها من المقاربات النصية هو أنها تنظر إلى النص من زاوية تأثيره في المتلقي؛ تتحرك البلاغة في هذه المسافة بين النص والمتلقي؛ تتساءل عن كيفيات التأثير فيه جماليا وتداوليا. وبذلك يتداخل في التحليل البلاغي ما هو جمالي أو نصي داخلي، بما هو إيديولوجي وتداولي. لكن تاريخ البلاغة لم يكن في جميع الأحوال مؤيدا لهذا التداخل؛ فهناك من يقيدها بدرس ما هو إقناعي في النص (بلاغة الحجاج)، وهناك من يحصرها في درس الوجوه والصور التي تحسن النص وتزينه (بلاغة الأسلوب).

وقد وجدنا معظم البلاغيين المعاصرين في الغرب ينعت "بلاغة الأسلوب" بالانحراف عن بلاغة الخطاب التي شيدها أرسطو قديما، تلك البلاغة التي لم تحتف بالأدب بقدر احتفائها بالنصوص ذات البعد التداولي. يستند هؤلاء إلى تحديد أرسطو للبلاغة التي ربطها بالخطاب

Michel Meyer,Questions de rhétorique : langage, raison et séduction, Le livre de poche, 1993. (1)

الإقناعي[1]؛ أي إن موضوعها الخطابة أو الكلام الفعال الذي يؤثر في المتلقي تأثيرا عمليا. تهتم البلاغة بوظائف الكلام وليس ببنيته؛ فلا يعنيها الشكل اللغوي، إلا من حيث هو وسيلة في خدمة التواصل. من هنا فهي تدرس الوسائل التي تكفل بلوغ الإقناع بما ينطوي عليه من وظائف الإفادة والتأثير والإمتاع[2]. فهل يعني هذا أن البلاغة عند أرسطو لا شأن لها بالأدب من حيث هو كلام جميل غير وظيفي بالمفهوم التداولي؟! ولكن هل يوجد هذا الأدب غير الوظيفي أو الذي لا يسعى إلى توصيل رسالة أو الذي لا يروم الإقناع؟

يذهب المنظرون الغربيون إلى أن البلاغة عندما أصبحت في تحولاتها التاريخية مرادفة للشعرية أو الأسلوبية، فقدت أهم مكون يحدد مجالها وهو اعتبارها نظرية في الخطاب الفعال؛ كان ذلك نتيجة ربطها بالأدب بوصفه كلاما جميلا لا يضطلع بوظائف خارجية. لا يمكن البلاغة أن تنطوي على هذا التصور الجمالي المغلق للأدب دون أن يؤدي ذلك إلى تقويضها. لابد لها إذن لكي تسوِّغ درسها للأدب أن تقوم على تصور تواصلي وظيفي للنص الأدبي؛ أي عليها أن تنظر إلى الأعمال الأدبية من منظور المفهومات الأساس التي قامت عليها النظرية البلاغية في الأصل؛ مفهومات المقصدية الواضحة والمعنى الوحيد والإقناع.

من هنا كان من الضروري التنبيه في هذا التقديم، إلى أن اقتران البلاغة بالأدب –كما هو مثبت في عنوان الكتاب– ليس أمرا واضحا

(1) Aristote, Rhétorique, LGF, 1991, P.82.

(2) Tzvetan Todorov, Splendeur et misère de la rhétorique, in Théories du symbole, ed. Seuil, 1977. p. 59.

كل الوضوح؛ فلفظ البلاغة في استخداماته القديمة والحديثة لا يخلو من التباس ناجم عن تعدد دلالاته وتحديداته. كما أن اقترانه حديثا بأجناس أدبية سردية وبأنماط تعبيرية مستحدثة وبمجالات إعلامية وتواصلية وفنية سيميائية من قبيل الإشهار والسينما والتصوير الفوتوغرافي والتشكيل والموسيقى والاقتصاد والجنس، أسهم في التباس مدلولها وفي غناه. من هنا اتجهت غايتنا إلى الوقوف على جوهر البلاغة الذي يسوغ تعدد استخدامها لوصف وتفسير خطابات تبدو متعارضة في بنياتها ووظائفها؛ أي إن البلاغة لا تعدم أن تستوعب كلا من الخطابين التداولي(الخطاب السياسي والديني والقضائي والإشهاري) والتخييلي(الأدبي والفني).

يكمن هذا الجوهر في التصور التواصلي للأعمال الأدبية[1]. لا يوجد أي اعتراض عندما نربط البلاغة بالأعمال الكلاسية، لأن الأدب في هذه المراحل كان ذا طبيعة مزدوجة[2]؛ كان الشاعر والسارد القديم يمتعان ويفيدان في الآن معا. لم يعرف الأدب مفهوم الوظيفة الجمالية المستقلة إلا في العصور الحديثة. من هنا حام الشك حول البلاغة وضرورة استمرارها في وصف وتأويل خطاب جمالي لا يتوجه إلى المتلقي برسالة محددة وواضحة؛ خطاب يحيل إلى سياقه الداخلي الذاتي.

لكن هل يوجد بالفعل هذا الخطاب المستقل بذاته بشكل مطلق؟

يبدو أن الارتياب الذي أثير منذ فترة حول مفهوم الأدب الخالص أو اللازم قد أعاد الحديث عن العلاقة بين البلاغة والأدب على نحو مختلف.

(1) Kibédi Varga, Discours et Récit , in Rhétoriques, Sémiotiques, Revue d'Esthétique, n°1-2 1979. p.(374-381).

(2) Michel Meyer, Langage et Littérature, PUF,1992.P.170.

والحق أن فصل أرسطو بين البلاغة والشعرية في مؤلفين مستقلين، كان مسئولا عن حصر البلاغيين الجدد للبلاغة في درس الخطاب الحجاجي دون الأدبي، وكأنهم بذلك وجدوا سندا تاريخيا يعزز تصورهم في خضم التجاذبات التي عرفها مفهوم البلاغة حديثا. لكن التاريخ يقول لنا أيضا إن البلاغة ارتبطت في مراحلها القديمة والحديثة --عربيا وغربيا-- بالكلام الجميل غير الفعال الذي تجسد شعرا ونثرا. فهل نصف هذا الارتباط بالخطأ التاريخي والانحراف والشذوذ؟!

ومن جهة أخرى، يبدو أن اقتران البلاغة بالأدب من المسلمات التي تستغني عن أي إثبات؛ فلفظ البلاغة ينطوي في ذاته على دلالات الإبلاغ الجميل وحسن التعبير والجودة؛ يقول أبو حيان التوحيدي: " أما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد، بالوزن والبناء والسجع والتقفية والحلية الرائعة، وتخير اللفظ. وهذا الفن لخاصة الناس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام(1)". وهي أوصاف اقترنت بالأدب، مهما تتباين وجهات النظر حول ماهيته، ومهما توجد تلك الأوصاف خارج الأعمال الأدبية تحديدا.

وبناء على هذا التصور الأدبي للبلاغة، انخرط البلاغيون في رصد الصور وتصنيفها في قوائم؛ وقد بلغ عددها عند الغربيين مائتين وخمسين صورة وفق ما ذكر جون كوهن، وقد أحصى ابن أبي الإصبع المصري في البلاغة العربية مائة وثلاثة وعشرين بابا.

(1) المقابسات، دار المدى، 1986، ص. 92.

فهل نحصر موضوع البلاغة في دراسة هذه الصور المعدودة أو المقننة؟

يقف هذا الكتاب أيضا على إشكال البلاغة بين اعتبارها نموذجا كليا، وبين اعتبارها بلاغات نوعية خاصة. هل كان سعي النماذج البلاغية إلى ضبط الكليات في صالح بلاغات النصوص والأنواع الأدبية؟ أي هل يمكن الحديث عن مشروعية وجود بلاغة كلية قادرة على النمذجة الصارمة للبلاغات النوعية المختلفة؟

إذا ما حصرنا مناقشتنا هنا في "النماذج البلاغية" بالمعنى الضيق للكلمة، دون النماذج النظرية الأخرى التي خاضت بشكل أو آخر في بلاغة النص الأدبي، فيمكن القول إنها ترى في مبدأ الانزياح روح البلاغة وجوهر البلاغية. بيد أن هذا المبدأ لا يصلح معيارا لتحديد أو تفسير بلاغات أنواع أدبية لا تعتمد البنية اللغوية مقوما حاسما في تكوينها. إنه مفهوم قاصر عن تمثيل وتفسير البلاغية في تنوع أنماطها وتأثيراتها. على هذا النحو فإن اقتراح نماذج بلاغية عامة وكلية صارمة لا يمكنه أن يفي بحقوق البلاغات الخاصة. فأرسطو لم يصغ بلاغة عامة بل اقترح نموذجين بلاغيين؛ نموذجا للخطابة ونموذجا آخر للتراجيديا أسماه "فن الشعر" أو "الشعرية". أما حازم الذي كان يرى في البلاغة علما كليا يستوعب الشعر والخطابة، فقد صاغ نموذجا بلاغيا مستمدا من النص الشعري دون أن يزعم تعميمه على أنماط القول الأخرى، ولعله لو تصدى للخطابة لكان قد اهتدى إلى نموذج بلاغي آخر يغني به نموذجه البلاغي الشعري. إن وصف حازم للبلاغة بالعلم الكلي لا يعني أن هناك بلاغة عامة تجري على جميع أنماط القول

والأنواع الأدبية، ولكنه يعني أنه لما كانت جميع هذه الأنماط والأنواع تتسم بالبلاغة؛ أي تتفق في الوظيفة التأثيرية، فإن ذلك يسوغ قيام علم مشترك لدراستها مع مراعاة خصوصياتها.

ويبدو أن النماذج البلاغية الحديثة انزلقت إلى التعميم المخل بخصوصية البلاغات الأدبية التي تجسدها النصوص والأنواع. وقد تفطن أصحاب هذه النماذج إلى أن البلاغات العامة لا تتسع لجميع أنماط الخطاب الأدبي، فلجأوا إلى التوسيع؛ فجماعة لييج اقترحت نموذجا لبلاغة السرد، كما أنها حاولت استشراف آفاق بلاغة النوع على نحو ما صنعت في كتابها اللاحق "بلاغة الشعر". وقد حاول أيضا "هنريش بليت" توسيع مفهوم الملفوظ البلاغي واقتراح نموذج بلاغي سيميائي يستوعب مستويات تخرج عن النطاق الضيق للسانيات؛ إنه نموذج تصنيفي وظيفي إلى جانب كونه نموذجا توليديا يفسر به طبيعة الملفوظ وتعدد وظائفه. غير أن ربطه البلاغة بمجموعة من العمليات اللسانية التي تتحدد في مقولة الانزياح، لا يمكن أن يمثل جوهر البلاغة في جميع أنواع الخطاب التخييلي. ويظل الأدب بأجناسه وأنواعه يفرز بلاغات متنوعة لا تربطها بالبلاغة العامة إلا مجموعة من المبادئ العامة كفيلة بتسويغ إطلاق لفظ البلاغة على درس جميع أنواع الخطاب المؤثر كما صنع حازم، ولكن لا يمكن أن توجد هذه البلاغة العامة المتحدثة باسم البلاغات الخاصة.

هذا مجمل الأفكار التي يسعى الكتاب إليها بالتفصيل.

سبتمبر 2009

البلاغة و الأدب

لا يمتلك لفظ "البلاغة" دلالة مطلقة. وقد كانت إحدى غايات هذه الدراسة للباحث المغربي محمد مشبال السعي إلى تحديد مبدأ عام يسوغ استخدامه على نحو محدد يردم الانشطار الذي قصم النظرية البلاغية إلى اتجاهين متعارضين؛ يُعنَى أحدهما بصور الأسلوب، بينما يُعنَى الثاني بمظاهر الحجاج.

محمد مشبال، أستاذ النقد والبلاغة وتحليل الخطاب في كلية الآداب تطوان المغرب، ومنسق فرقة البحث في "البلاغة وتحليل الخطاب" التابعة لمدرسة الدكتوراه بالكلية المذكورة. من مؤلفاته: (مقولات بلاغية في تحليل الشعر، 1993) و(أسرار النقد، مكتبة سلمى تطوان، 2002) و(بلاغة النادرة، أفريقيا الشرق 2006) و(البلاغة والأصول، أفريقيا الشرق 2007) و(الهوى المصري في المخيلة المغربية، منشورات بلاغات القصر الكبير، 2007) و(البلاغة والسرد، كلية الآداب تطوان، 2010).

الغلاف: بسمة صلاح

دار العين للنشر
El Ain Publishing House

9 789774 900440